



الأربعاء 15 مارس 2017 10:03 م

الأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد
أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر وأم القرى (سابقاً)

1- السعة البالغة لموضوعات القرآن الكريم:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . . أما بعد:
فإن من يتكلم في التفسير الموضوعي يعلم أنه يجمع موضوعات ليفسرها؛ فهل القرآن الكريم فيه موضوعات كثيرة؟ وهل تتسع لنشأة هذا العلم الجديد؟

الجواب عن هذا: أن القرآن الكريم يشمل موضوعات شتى كثيرة، لا يمكن حصرها، وهي ممتدة امتداداً يدهش العقول والأسماع والأبصار؛ لأن القرآن الكريم كتاب -من حيث الصفحات- محدود الحجم، لكنه من حيث المعاني والسعة يمتد امتداداً لا عهد للعقول البشرية به في الكتب أو المؤلفات البشرية، ولذلك قال الإمام الراغب -رحمه الله- في كتابه الفذ البديع (مفردات ألفاظ القرآن الكريم)، قال في مقدمة هذا الكتاب: إن الله -سبحانه وتعالى- كما جعل نبوة النبيين بنينا محمد ^ مختتمة، وجعل شرائعهم بشريته -من وجه- منتسخة، ومن وجه مكملة متممة، جعل كتابه المنزل عليه متضمناً لثمره كتبه التي أولاهها أولئك النبيين؛ كما نبه عليه بقوله تعالى: [يُنَالُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِیمَةٌ] (البينة: 2، 3)

وجعل سبحانه من معجزات هذا الكتاب أنه -مع قلة الحجم- متضمنٌ للمعنى الجمُّ؛ بحيث تقصر الأسباب البشرية عن إحصائه، وتقتصر الآلات الدنيوية عن استيفائه؛ كما نبه عليه تعالى بقوله [وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَدُوُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ] (القلم: 27)؛

2- العلوم المستنبطة من القرآن:

كتب علماءنا -رضي الله عنهم- في كتب علوم القرآن أبواباً واسعة؛ لبيان ما في القرآن الكريم من معاني وموضوعات، وعلوم متضمنة، أو ظاهرة؛ بحيث نجد من ذلك فيضاً غزيراً؛ فمثلاً الإمام الزركشي كتب ذلك في أول كتابه (البرهان في علوم القرآن) وبيّن أشياء كثيرة في هذا؛ ثم جاء الإمام السيوطي -رحمه الله- فمد ذلك مداً موسعاً في كتابه الجليل (الإتقان في علوم القرآن) وبيّن السعة الواسعة في النوع الخامس والستين بعنوان "العلوم المستنبطة من القرآن الكريم" فقال فيها: وقال تعالى: [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ] (النحل: 89) وقال ^: (ستكون فتن، قيل: وما المخرج منها؟ قال كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم) أخرجه الترمذي وغيره، وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: (من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين، قال البيهقي: يعني أصول العلم).

وأخرج البيهقي عن الحسن قال: أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة منها؛ هي التوراة والإنجيل والزيور والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان -يعني: القرآن- وقال الإمام الشافعي -رضي الله عنه: جميع ما تقوله الأمة، هو شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن وقال أيضاً: جميع ما حكم به النبي ^ فهو مما فهمه من القرآن، ويؤيد هذا قوله ^: (إني لا أحل إلا ما أحل الله، ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه)، أخرجه بهذا اللفظ الشافعي في (الأم).

وقال سعيد بن جبير -رضي الله عنه: ما بلغني حديث عن رسول الله ^ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله تعالى
وقال ابن مسعود -رضي الله عنه: إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتدقيقه من كتاب الله تعالى أخرجهما ابن أبي حاتم هكذا قال السيوطي -رحمه الله- ثم امتد بعدها في كلام طويل، وقال نقلاً عن أبي الفضل المرسي في تفسيره: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين؛ بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم بها -سبحانه وتعالى- ثم رسول الله ^ خلا ما استأثر الله بعلمه، ثم ورث عنه معظم ذلك السادة الصحابة وأعلامهم، مثل: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود وابن عباس -رضي الله عنهم- أجمعين حتى قال: لو ضاع لي عقل بعير لوجدته في كتاب الله تعالى

ثم ورث عنه التابعون بإحسان، ثم تقاصرت همهم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوّعوا علومه، وقامت كل طائفة ببن من فنونه؛ فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحريم كلماته، ومعرفة مخارج حروفه . . إلى آخره، فسموا القراء

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال والحروف، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال . . إلى آخره، فسموا بالنحاة، واعتنى المفسرون بألفاظه وتراكيبه فسموا بالمفسرين، واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله تعالى: [لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا] (الأنبياء: 23) . . إلى غير ذلك، فاستنبطوا الأدلة على وحدانية الله تعالى، وسموا هذا العلم بأصول الدين، وتأملت طائفة منهم معاني خطابه، فرأت منها ما يقتضي العموم، ومنها ما يقتضي الخصوص إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا في التخصيص والإخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم . . إلى آخره، وسموا هذا العلم «أصول الفقه».

وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر، فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام، فأبسطوا أصوله، وفرّعوا فروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً، وسقوه بعلم الفروع أو بالفقه أيضاً . . إلى آخر العلوم المستنبطة من القرآن
تكلم الإمام السيوطي وغيره من الأئمة كلاماً طويلاً كثيراً إلى أن روى الإمام السيوطي -أيضاً- في (الإتقان) قال: قال ابن سراج: من

بعض وجوه إعجاز القرآن ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب، والجمع، والقسمة، والضرب، والموافقة، والتأليف، والمناسبة، والتنصيف، والمضاعفة؛ ليعلم بذلك أهل العلم بالحساب أنه ^ صادق في قوله، وأن القرآن ليس من عنده؛ إذ لم يكن له أصل في مخالفة الفلاسفة، ولا تلقى الحساب والهندسة عن أحد

لهذا كله نجد أن القرآن الكريم يمتد في علوم شتى وشُعب طويلة عظيمة، وجاء بعض العلماء فحدد تحديداً فقال -مثلاً- مما روي عن الإمام أبي بكر بن العربي قال: وأُتعلّم القرآن ثلاثة؛ يعني: أصول علوم القرآن -أو جوامعها- ثلاثة؛ توحيد، وتذكير، وأحكام

فالتوحيد يدخل فيه معرفة المخلوقات، ومعرفة الخالق بأسمائه، وصفاته وأفعاله، والتذكير منه: الوعد والوعيد، والجنة والنار، وتصفية الظاهر والباطن، والأحكام منها التكاليف كلها، وتبيين المنافع والمضار، والأمر، والنهي، والندب، ولذلك كانت «الفاتحة» تسمى «أم القرآن»؛ لأن فيها الأقسام الثلاثة

وسورة الإخلاص تسمى بذلك؛ لأنها ثلث القرآن؛ لاشتمالها على أحد الأقسام الثلاثة -وهو التوحيد- وقال الإمام ابن جرير الطبري: القرآن يشتمل على ثلاثة أشياء -يعني: الجوامع الكبرى- الوحي، والإخبار، والديانات، ولهذا كانت سورة الإخلاص ثلثه؛ لأنها تشمل التوحيد كله، وقال علي بن عيسى الرقائي: القرآن يشتمل على ثلاثين شيئاً؛ الإعلام، والتنبيه، والأمر، والنهي، والوعد، والوعيد، ووصف الجنة، والنار، وتعليم الإقراء باسم الله، وبصفاته، وأفعاله، وتعليم الاعتراف بإنعامه، والاحتجاج على المتخالفين، والرد على الملحدين، والبيان على الرغبة، والرغبة، والخير، والشر، والحسن، والقيح، ونعت الحكمة، وفصل المعرفة، ومدح الأبرار، وذم الفجار، والتسليم، والتحسين والتوكيد، والتقريب . . إلى آخره، وعد من ذلك شيئاً كثيراً

وقال القاضي أبو المعالي: وعلى التحقيق إن هذه الأقسام الكثيرة هي تلك الثلاثة التي قالها ابن جرير؛ لأنها تشمل هذا كله، بل أضعافه فإن القرآن لا يُستدرك ولا تُخصى عجائبه

ويعلق الإمام السيوطي على هذا، فيقول: وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، وأما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وما تحت الثرى، وبدء الخلق، وأسماء مشاهير الرسل، والملائكة، وعيون الأخبار؛ كقصة آدم مع إبليس في إخراجها من الجنة، وطرد إبليس، وغرق قوم نوح، وقصة عاد الأولى، والثانية، وثمود، والناقة، وقوم يونس، وقوم شعيب، والأولين، والآخرين، وقوم لوط، وقوم تبع، وأصحاب الرس، وقصة إبراهيم في مجادلة قومه . . وغير ذلك كثير عدّه الإمام السيوطي في هذا الباب

فنحن إذن أمام أنواع وعلوم كثيرة جداً، وموضوعات شتى لا يمكن أن نحصيها، لكن يلاحظ أن بعض الأئمة حاول أن يجمع الموضوعات القرآنية في الأغراض التي جاء من أجلها القرآن أصلاً، فإن القرآن الكريم جاء بمبادئ يريد أن يعلمها للناس، وأن يفرّرها -وهي الهداية- أي المنهاج الذي يمشي عليه الناس، أو الشريعة -الدين والشريعة- التي ينبغي أن تسير عليها الأمم والشعوب والبشرية إلى يوم القيامة، وهذا -كما علم الأنبياء السابقين- علمه محمداً ^ وضمنه هذا الكتاب المعجز الباقي الذي تعهد ربنا بحفظه -سبحانه وتعالى- ومن ثمّ ركزوا على الدين والهداية

نحن أيضاً عندما ننظر في القرآن، نجد قولاً -عز وجل-: [سُحُورٌ هَزْرَقَ أَنْ الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ هُوَ دَلِيلٌ لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْهُ لِيُذَكَّرَ] (البقرة: 185) فالغرض الأساسي للقرآن الكريم هو هداية الخلق إلى طريق الله، إلى معرفة الله، إلى السبيل الذي يسلكونه؛ لكي يرجعوا إلى الجنة، وهي الدار التي طردوا منها أول مرة بذنوبهم، فنحن إذن نقول: عندنا الهداية القرآنية أو الشريعة القرآنية أو الدين الإلهي الذي قرره القرآن هو المحور الأساسي في كتاب الله -سبحانه وتعالى- من هنا نجد بعض الأئمة يركز على هذا

إذن هناك قصص كثيرة في القرآن وأخبار، كل هذه وسائل لتقرير هذا الأصل الأصلي وهو الشريعة والدين -الذي جاء به رسل الله عبر القرون والأمم

3-المبادئ والوسائل في القرآن الكريم، واتصاف القرآن بالشمول:

إذا انتقلنا إلى تقرير هذا العنصر المهم الأساسي في القرآن الكريم لنبين أن القرآن الكريم ينقسم إجمالاً إلى قسمين كبيرين:

القسم الأول: المبادئ التي جاء بها، وأمرنا بها ربنا، أو نهانا عن ارتكابها من المخالفات

والقسم الثاني: الوسائل والأساليب التي جاءت لتقرر هذه الشريعة مثل: مجادلة الكفار، وإقامة الأدلة للناس

التوحيد: فريضة الفرائض، وأصل الأصول، والأصل أن الشرك يجب أن ينتهي عنه الناس، هذه مبادئ ودين، لكن الأساليب التي جاءت لتقرير ذلك أو لدفعه، لبيان الحقيقة أو للرد على الشبهة وعلما للمخالفين هذه أساليب في القرآن الكريم؛ لذلك كثير من الأئمة؛ إما يركز على هذا، وإما يركز على الموضوعات جميعاً، ومن ذلك ما يقوله السيوطي -مثلاً: القرآن فيه جميع أسماء الله تعالى الحسنی، كما وردت في الحديث، ومن أسمائه مطلقاً ألف اسم، ومن أسماء النبي ^ جملة، وفيه شعب الإيمان البضع والسبعون، وفيه شرائع الإسلام الثلاثمائة والخمس عشرة، وفيه أنواع الكبائر وكثير من الصغائر، وفيه تصديق كل حديث ورد عن النبي ^ إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات

فيذا أردنا أن تنتقل إلى العنصر الثاني في هذا، وهو عنصر (الشمول القرآني) يتقرر لنا أن القرآن جاء شاملاً كاملاً تامةً مستوعباً لكل شؤون الحياة التي يحتاجها البشر في دينهم وديناهم، ولهذا نجد أن هذا الشمول ينص عليه في القرآن -الشمول بمعنى الاستيعاب، والعموم- نجد أن القرآن الكريم ينص على هذا الشمول في مواضع كثيرة، وبمتابعة هذا في القرآن الكريم وجدت أن هذا الشمول ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: شمول المكان والزمان

القسم الثاني: شمول الأفراد

القسم الثالث: شمول المبادئ والأحكام

أما شمول المكان والزمان فمعناه: أن هذا الدين موجه لكل مكان وزمان إلى يوم القيامة، فهو ليس موجهاً إلى الجزيرة العربية فقط، ولا إلى المعاصرين للنبي ^ فقط، وإنما هو موجه لكل من يوجد في مكان أو زمان، وهما مترابطان -يقول الله تعالى في تقرير هذا: [وَلِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا] (الأنعام: 92) أم القرى: هي مكة المكرمة، ومن حولها: هو العالم كله؛ لأن نقطة الارتكاز في اليابسة هي مكة المكرمة، فهي أم القرى؛ كأن القرى خرجت منها جميعاً

فهذا شمول للمكان: النبي ^ جاء مبلغاً للدين للجزيرة العربية ابتداءً، والعالم جميعاً من بعد ذلك، فهذا شمول للمكان والزمان

شمول الأفراد -أي: أن هذا الدين الذي عموده القرآن وموضوعات القرآن، هي الأساس كما بيّنا- موجه إلى كل فرد في الناس إلى يوم القيامة؛ منذ بعث محمد ^ ونادي في بطحاء مكة: قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، ونزلت عليه الآيات الأولى من القرآن: [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ] (العلق: 1-5).

فهذا هو الأساس، أنه نداءٌ موجه لجميع الأفراد بشرط أن يكونوا عقلاء يفهمون الخطاب، وبشرط أن يكونوا بالغين لسن التكليف أو بلوغهم هذه الرسالة، وفي القرآن آيات كثيرة تقرر ذلك، وهذا أيضاً من الموضوعات العظيمة التي يتناولها التفسير الموضوعي، ومن فوائد الجمعموضوعي الذي يجمع لنا الآيات المتعلقة بهذا؛ حتى نفهم هذا الجانب الخطير من رسالة الله للناس

الأخلاق الفاضلة الحسنة- وأخلاق تُهيننا عنها، وهي الأخلاق السيئة المنكرة وما إلى ذلك، مثل: الكِبْر والكذب . . إلى آخره] أيضًا شعبة العبادات: العبادات شعبة عظيمة ممتدة تمثل اساسا من اساس التكليف، وهي مثل: الصلاة، والزكاة، والحج، وقراءة القرآن، والذكر، والطواف، والسعي بين الصفا والمروة، وسائر شعب العبادات الإلهية، التي سواء كُلفنا بها على طريق التحديد مثل الصلاة أو على طريق الإطلاق، أو عدم التحديد مثل الذكر] . . وهكذا، فنجد أيضًا هذه الشعبة من الشعب الأساسية التي تحتها أفراد كثيرون] بعد ذلك عندنا شعبة المعاملات، وهي ما يقع من ألوان التعاملات بين الناس، مثل: البيع، والشراء، والرهن، والهبة، والميراث، والزواج، والطلاق، والحرب، والسلام، والهدنة، والمصالحات، وتقسيم الغنائم، وشعبة ممتدة، واسعة النطاق، تشمل شؤون الحياة الدنيوية، وكل هذا مقرر في كتاب الله - عز وجل- ومقرر في سنة رسول الله ^ وهذا يعطي لنا بُعدًا عظيمًا كبيرًا في أن الإسلام دين شامل لكل شؤون الحياة، وأن القرآن كتاب شامل لكل شؤون الحياة كما قال ربنا: [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ] (النحل: 89)

5- الجمع الموضوعي وأنواع الترتيب القرآني: (3]

هنا نتقل إلى عنصر مهم جدًا، وهو الجمع الموضوعي، الجمع الموضوعي لا بد أن يتقرر بعد أن نفهم أن القرآن الكريم العظيم فيه موضوعات كثيرة جدًا، نريد أن نبحت موضوعًا معيّنًا؛ فكيف نبحت فيه؟

أولاً: نجمع الآيات الكريمة المتعلقة بهذا الموضوع؛ لنضعها أمامنا للبحث والمقارنة والموازنة واستنباط العناصر منه؛ ليتقرر موقف القرآن الكريم من هذا الموضوع، ومن هنا نتحدث عن الجمع الموضوعي، نقول: إن الجمع الموضوعي هو وجه من وجوه الترتيب في القرآن الكريم؛ كيف هذا؟ نزل القرآن الكريم منجماً على مدار ثلاثة وعشرين عامًا تقريبًا، وكان كلما نزل شيء منه أمر النبي ^ بوضعه في مكان معين من سورة معينة، وكانت هذه النجوم القرآنية تتضمن أعرافًا شتى توزعت في سور القرآن الكريم، ومن هنا كان للقرآن الكريم وجوه متعددة في ترتيبه، هي -بإيجاز:

أولاً: ترتيب النزول:

حيث كانت الآيات الكريمة تُنزل على حسب الوقائع والأحوال -كما نعلم- أحيانًا بعض آية، أو آية، أو عدة آيات، أو سورة كاملة، وقد بدأ هذا الترتيب -ترتيب النزول- بصدر سورة العلق: [أَفْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ] إلى خمس آيات منها، وانتهى بالآية الكريمة -على الراجح- الآية رقم 281 من سورة البقرة: [وَأَنذَرُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ] وهذا الترتيب هو أساس البحث والدراسة عند العلماء، هذا ترتيب للبحث والدراسة، ليس للتلاوة، ينبغي أن نتنبه لهذا؛ لأن عليه يترتب معرفة الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، وتدرج التشريع، وتاريخ التشريع، ولا يوجد -بالمناسبة- ضبط كامل لهذا النوع من الترتيب -ترتيب النزول- وإنما يوجد -كما قلنا- في المكّي والمدني أشياء مقطوع بترتيبها نزولاً، وأشياء راجحة، وأشياء محتملة، وهذا قليل في الأحكام]

ثانياً: ترتيب التلاوة -بعد ترتيب النزول ترتيب التلاوة:-

وهو الموجود في المصاحف الآن، وقد رُتب على هذا الوجه بأمر النبي ^ وفق ما علمه جبريل عليه السلام؛ أخذاً من اللوح المحفوظ، وهو الذي كان يقرأ به النبي ^ في الصلاة وفي التلاوة، وبحفظه لأصحابه، ويدارسه به جبريل في رمضان، وهذا هو الترتيب المتواتر المتعبد بتلاوته والمتحدى به، وقد رُتب على هذا النمط؛ لحكم وأسرار كثيرة، سنتحدث عن بعضها -إن شاء الله]

إذن ترتيب النزول أولاً، وترتيب التلاوة ثانياً

ثالثاً: ترتيب الموضوعات:

وهو الذي يُجمع فيه الآيات المتعلقة بكل موضوع على حدة، وفي مكان واحد؛ للنظر فيها مجتمعة واستخراج عناصرها، ومعرفة حقائقها عن طريق تفسيرها تفسيراً موضوعياً، وهذا الوجه هو أساس البحث والدراسة عند العلماء من قديم، مثل: الوجه الأول، وكان عمدتهم في استخراج حقائق القرآن وأحكامه؛ في العقائد والفقه وغيرها مثل: آيات الخمر مثلاً -أي إنسان يسأل عن الخمر وحكم الخمر تجمع الآيات المتعلقة بها التي نزلت في أوقات شتى، ليتقرر حكم الخمر- ومثل آيات الربا، ونحو ذلك]

وكل ما جدّ عليه -على التفسير الموضوعي أو الجمع الموضوعي- هو الاتجاه به نحو مزيد من التخصص، وتحديد الموضوعات ودراستها دراسة تلاميذ حاجة الإنسان في هذا الزمان، ولتبرُّر وجهها من وجوه الإعجاز القرآني، وأصل هذا النوع -الذي هو الجمع الموضوعي- هو أمر يقيني موجود في القرآن بيقين، ويمكن النظر فيه واستخراجه بلا تكلف ولا تعسف؛ أما طرائق الترتيب الفني أو التصنيف العلمي فهي وجوه دراسية يمكن أن تتعدد]

الترتيب الرابع: ترتيب النظام القرآني أو ما يسمى بالوحدة الموضوعية في السورة الواحدة أو في القرآن الكريم كله:

وهذا الموضوع مازال قيد البحث، ولم يتضح للعلماء القواعد العلمية الكبرى التي تضبطه، وإنما هو مازال في طور البحث والتأليف وما إلى ذلك كما فعل الشيخ محمد عبد الله دراز في كتابه (مدخل إلى القرآن الكريم) وغير ذلك]

5-رد الشبهات الواردة على الجمع الموضوعي: (4]

نتنقل إلى رد الشبهات التي ترد على الجمع الموضوعي: فقد وردت بعض الشبهات على هذا المبدأ، وما يترتب عليه من التفسير الموضوعي، ملخصها -

الشبهة الأولى: أن الله تعالى قد ذم مثل هذا الاتجاه التجزيئي في القرآن، في قوله تعالى: [كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ] الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ [5]﴿مُورِّثًا لِّسَائِلِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ[(الحجر: 90-93).

الشبهة الثانية: أن الجمع الموضوعي هو تقطيع للوحدة القرآنية التي سماها القرآن السورة، وإحلال لوحدة أخرى مكانها هي وحدة الموضوع، هذه شبهة]

الشبهة الثالثة: الجمع الموضوعي إخلال بنظام ترتيب القرآن المعجز المتواتر المتعبد بتلاوته على هذا النمط الموجود في المصاحف الآن] الشبهة الرابعة: فيه -يعني: في الجمع الموضوعي- يقولون؛ فيه معنى الاستدراك على الله تعالى؛ إذ لو شاء لجعل القرآن على الترتيب الموضوعي من أول الأمر]

والجواب عن هذا كله -بإيجاز:

أولاً: معنى عِضِينَ في الآية "فراقاً، وأقساماً" أي أن الكفار جعلوا القرآن هكذا؛ بعضه سحرًا وبعضه كهانة وبعضه شعراً، هكذا كان يقول الكفار، وغير ذلك من أباطيلهم التي لا وجود لها في القرآن الكريم، أما الجمع الموضوعي فغير هذا جملة وتفصيلاً؛ لأننا نجعل بعضه في موضوع التوحيد، وبعضه في إثبات النبوة، وبعضه في إثبات القيامة، وهكذا كل موضوع هو تقرير لحقائق القرآن ذاته]

وقد روي البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال -في تفسير هذه الآيات- «هم أهل الكتاب، جزّوه أجزاء؛ فأمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه» أما نحن فعندنا الجمع الموضوعي وتفسيره هما إيمان بالكتاب كله -ولله الحمد- ثم هما تجميع لحقائق كل موضوع، وتفسير هذا الجمع، وليس فيهما تجزئة وتفرقة لمعاني القرآن، فبطل الاستدلال بالآيات الكريمة على ذم الجمع الموضوعي]

ثانياً: القول بأنه تقطيع لأوصال الآيات، ومخل بالنظم المعجز، هو قول باطل مردود؛ لأننا لا نُؤلف بهذا الجمع الموضوعي قرآناً يتلى، أو يُتعبد بتلاوته على هذا الوجه، فإن هذا لا يشك مسلم في حرمة أو في كفر من يستحله، وإنما هذا الجمع الموضوعي مقصود به البحث

والدراسة العلمية؛ لاستخراج كنوز القرآن في جوانب الحياة على نمط يلائم العصر، ويؤكد الإعجاز القرآني] ومثل هذا كمثال ترتيب النزول، فإن مقصده الدراسة واستخراج الأحكام الصحيحة، وليس التلاوة، ورحم الله علماءنا فقد ردوا على مثل هذه الشبهة قديمًا، كما روى الإمام الزركشي في كتابه (البرهان) قال: قال بعض مشايخنا المحققين: قد وَهَمَ من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً] فالمصحف كالمصحف المكرمة التي جاءت في الآية الكريمة: [فِي ضُفِّ مُكَرَّمَةٍ] (عبس:13)، على وفق ما في الكتاب المكنون، وهي مرتبة بسورها وآياتها كلها بالتوقيف، وحافظ القرآن الكريم لو اشْتُفِي -لو أحد من حفاظ القرآن استفتي- في أحكام متعددة أو ناظر فيها أو أملاها، لذكر آية كل حكم على ما يُبَيَّنُّ، فإذا رجع إلى التلاوة لم يتلَّ كما أفتى، ولا كما نَزَلَ مَفْرَقًا، بل كما أنزله الله جملة واحدة إلى بيت العزّة في سماء الدنيا، أما القول بأن الجمع الموضوعي استدراك على الله تعالى، ولو شاء لجعله على النظام الموضوعي من أول الأمر، فالجواب أن الله تعالى بعلمه جعل القرآن موضوعاتٍ محددةً مرتبةً من أول الأمر، وهي في القرآن على قسمين:

القسم الأول: قسم محدد مستقل بصورة لا تتناول إلا موضوعًا واحدًا -كما في سورة الفيل- وفي سورة "قريش والمسد والإخلاص ونوح والجن، وسورة القارعة" ونحو ذلك]

القسم الثاني: موضوع محدد قائم برأسه ماثوث في صور مختلفة لحكم كثيرة، وهذا الذي يُجمع موضوعيًا من سوره؛ للدراسة لا للتلاوة، مثل: الإيمان بالله، ومثل: الإيمان بالآخرة، وهكذا]

لكن يبقى لدينا السؤال عن حكمة بث الموضوع الواحد في سور شتى]؟!]

6-حكمة ترتيب السور وبث الموضوع الواحد في سور شتى: (6]

هنا ننتقل إلى عنصر مهم جدًا، نقول: ما حكمة بث الموضوع الواحد في سور شتى، وإيثار ترتيب السور على هذا النمط المتواتر في المصحف، دون ما عداه؟ نقول: الحكمة في ذلك -والله أعلم- واسعة متشعبة منها: -

أولاً: تيسير حفظ القرآن وتلاوته؛ لأن الله تعالى تعهد بحفظ القرآن إلى يوم الدين، وجعل لذلك وسائل شتى منها: تيسير حفظه في الصدور، والتشويق إلى تلاوته دائمًا، وترتيب القرآن على نمطه المتواتر للتلاوة هو أيسر ترتيب يُحفظ، وهو أشوق نص يتلى ويكرر؛ لأن الأغراض وَرَّعَتْ على سوره، ومزج بعضها في بعض مزجًا عجيبًا وفق خطة ونظام معجز، فلا يزال القارئ للحفظ أو للتلاوة ينتقل بين الآي والسور لا يمل ولا يزهّد، بل يزداد إقبالًا، كلما فرغ من عرض ممتزج بقصة ومفضية إلى موعظة حسنة، وهكذا، ولعل هذا بعض أسرار قوله تعالى: [وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ] (القم:17).

ثانيًا من الحكم: التلطف في عرض موضوعاته دائمًا:

ذلك لأن هذا النمط من ترتيب التلاوة يستدرج القارئ بغاية اللطف إلى الإلمام بجميع أغراض القرآن، كلما تلا شيئاً منه عاد إليه، وإلى تذكيره بها دائمًا، فلا ينزع عن بعضها أبدًا، وهذا ضرب من الإعجاز في القرآن عجيب؛ ذلك لأن الإنسان مفضول على حب الانتقاء -فطرة في الإنسان، وعادة في الناس جميعًا- فيختار ما تعيل إليه نفسه، ويعرض عما عداه إعرافًا دائمًا أو موقوتًا؛ حسب حاجاته، وهو في ذلك كثير التقلب كما قيل بحق: وللناس بعدد رؤوسهم آراء، وسريع الملل، ودائم التحول بين الأشياء والأضداد، وبما أن الله تعالى هو الذي علم القرآن وخلق الإنسان، ويعلم فطرته، لذلك جاء بالقرآن على هذا الضرب المعجز من معالجة الفطرة الإنسانية، وملامتها أحوالها التي تنفعاها]

فلو جعل القرآن الكريم أبوابًا موضوعية في التلاوة، بابًا للصلاة، ثم ينتهي الحديث فيه، وآخر للزكاة، ثم ينتهي الحديث، وثالث للعقيدة] . إلى آخره، لو جُعِلَ القرآن على هذا النمط لأقبل كل قارئ على ما تهواه نفسه من أبواب المصحف، وترك غير ذلك، أما حين وَرَّعَتْ الموضوعات على نمط ترتيب التلاوة المعجز الموجود في المصاحف الآن، فإن القارئ ينتقل بينها في يسر وبلا إحساس بالفواصل بين ما يرغب فيه، وما يرغب عنه؛ لأنهما مُزَجَا مُزَجًا حكيماً، فالنذارة مزجت بالبشارة، وأحوال النار قرنت بأحوال الجنة، والقصة اشتملت على العقيدة، والأحكام الشرعية عرضت من خلال الأمثال والصور البلاغية، وهكذا تنسرب الموضوعات والأغراض في لطف بالغ إلى نفس القارئ، وكأنها عناصر شتى من الغذاء والدواء والفاكهة مزجت في قوارير من فضة، فطابت قلبيًا وقالليًا، وصار مزاجها محبوبًا، وغالبًا يتلقاه الإنسان من كل أقطاره بالقبول والإقبال، وبالشوق والإجلال]

فلما تم ذلك من خلال ترتيب التلاوة، واستقر القرآن في الأرض، استقرار الأبد، التفت العلماء إلى أغراض القرآن وموضوعاته يستخرجونها، كل بما يلائم زمانه، حتى جاء هذا العصر -الذي يحتاج إلى الجمع الموضوعي بمعناه المحدد- فوفق الله تعالى العلماء لاستخراج موضوعات القرآن متكاملة متجاوزة، ووضعها على مناهج التفسير الموضوعي؛ لاستخراج عناصرها، وبيان ما بينها من قرابة ماثمة ومناسبة خاصة رغم تباعد الزمان وتعدد الوقائع التي نزلت عليها نجوم القرآن]

ولعل أصدق تصوير لهذه المعاني كلها هو قول النبي ﷺ في وصف القرآن: "هو الذي لا تزبغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه" أو كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي، وغيره]

أما تفسير القرآن الكريم مطلقًا، فهو من أجل الأعمال؛ لأنه اشتغال بفهم كلام الله تعالى، وبيانه للناس، وقد أمر الله تعالى بالأميرين جميعًا في عديد من الآيات الكريمة، حتى إنها لتصلح أن تكون موضوعًا قرآنيًا إذا جمعت الآيات المتعلقة بها في شتى السور، ولذلك قال السيوطي -رحمه الله: أجمع العلماء على أن التفسير من فروض الكفايات، وأجل العلوم الثلاثة الشرعية، قال الأصبهاني - هذا تابعد كلام السيوطي-: أشرف صناعة يتعاطها الإنسان تفسير القرآن، بيان ذلك أن شرف الصناعة؛ إما بشرف موضوعها مثل: الصياغة -صياغة الذهب يعني- وإما بشرف غرضها، مثل: الطب -صناعة الطب- وإما لشدة الحاجة إليها كالفقه، فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث؛ لأن موضوع التفسير هو كلام الله تعالى، والغرض منه الاعتصام بالعروة الوثقى، وأما شدة الحاجة إليه؛ فلأن كل كمال ديني أو دنيوي مفتقر إلى العلوم الشرعية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى، والتفسير الموضوعي هو نوع من أنواع التفسير، بل هو أقربها إلى التفسير بالمأثور، أو إلى تفسير القرآن بالقرآن على وجه الخصوص، وهو أوثقها جميعًا بمعنى تدبر الآيات الكريمة في قوله تعالى: [كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ] (ص:29).

7- أشهر المؤلفات في الجمع الموضوعي:

ننتقل إلى العنصر الأخير في هذه المحاضرة بسؤال مهم عن المؤلفات الأساسية في الجمع الموضوعي في هذا العصر الحديث، الحقيقة لم نجد -رغم تنبه علماءنا لما في القرآن من سعة وموضوعات شاملة عظيمة لم نجد- كتابًا محددًا يبين لنا موضوعات القرآن الكريم، إنما هو -كما قلنا في الكتب الخاصة بعلوم القرآن تفصيلات في هذا عامة، لكن لا يوجد كتاب مفرد يسمي موضوعات القرآن، لكن في العصر الحديث بدأ الناس يحتاجون لموضوعات القرآن، ومن هنا ظهر الاهتمام بالجمع الموضوعي للقرآني الكريم، هذا معناه أن يؤلف كتاب يجمع الآيات في موضوعات تحت عناوين متعددة، يقول هذا موضوع مثلاً: الإيمان بالله، وبصفات الله، الإيمان بالآخرة، الجنة، النار، وهكذا ويجمع الآيات التي تحتها] كان من أوائل الكتب التي حدثت في هذا هو كتاب المستشرق الفرنسي «جول لابوم» والذي ترجمه الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي تحت عنوان «تفصيل آيات القرآن الكريم» وهذا الكتاب ألحق به كتابًا سماه «المستدرك» لأدورد مونتيه، وهو فرنسي أيضًا حاول

تكميل الكتاب السابق □

فهذا الكتاب أصل فكرته فكرة صحيحة، لكن المستشرق «جول لايوم» لم يكن يتقن العربية، واعتمد في تأليف كتابه هذا على ترجمات للقرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية؛ ترجمات غير دقيقة، وبالتالي وقع في أخطاء هائلة جقة؛ لأنه التوى بأغراض القرآن، ولم يحسن وضع الآيات تحت عناوينها، وما إلى ذلك □

ولهذا الكتاب -من ناحية الفكرة- كتاب طيب، لكن من حيث التنفيذ والموضوعات التي فيه عليه ملاحظات كثيرة جدًا وأخطاء، ولذلك جاء الشيخ الدكتور أحمد إبراهيم مهنا، فألف كتابًا سماه (تويب القرآن الكريم من الناحية الموضوعية) وطُبع الكتاب في مصر، انتقد فيه «جول لايوم» انتقادًا شديدًا جدًا، ويبيّن بعض أخطائه، ثم تتابع التأليف في ذلك كثيرًا، عندنا كتاب اسمه (الجامع لمواضيع القرآن الكريم) لمحمد فارس بركات، وقد طُبع الكتاب في دمشق، وعندنا كتاب (معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم) للدكتور عبد الصبور مرزوق، وهو مطبوع هنا في مصر، في ثلاثة أجزاء كبيرة، وهناك كتاب اسمه (تصنيف آيات القرآن الكريم) للأستاذ محمد محمود إسماعيل، وهو مطبوع في دار اللواء في الرياض، وهذا الكتاب جامع لموضوعات القرآن أحسن من كتابات المستشرقين كثيرًا؛ لأن المؤلفين المسلمين -أولًا- ملتزمون بدينهم ويفهمون لغتهم، ثم هم يضعون الكتب على أساس خدمة القرآن الكريم لا على أساس الطعن فيه؛ لأن «جول لايوم»، كما كتب الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (الدستور الأخلاقي في القرآن) وهي رسالة دكتوراة، كانت مكتوبة بالفرنسية أصلًا، وقد ترجمت إلى اللغة العربية، وقد بيّن الدكتور دراز الأخطاء الجمة التي وقع فيها «جول لايوم» وأسباب ذلك، لكن المؤلفين المسلمين يخدمون دينهم وكتاب ربهم، لذلك كانوا أكثر دقة وخدموا الموضوعات القرآنية، وأصبحت عندنا هذه الموضوعات في كتب منشورة مشهورة □

الذي ينقصنا الآن هو التفسير الموضوعي الجامع الذي يكون في مبسطة كبيرة على نمط التفسير التحليلي مثل: تفسير الطبري وغيره، هذا الذي ينقص المكتبة الإسلامية الآن □
ونسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يوفقنا جميعًا للتعاون في إخراج هذه الموسوعة أو المبسطة الكبيرة التي تكون خدمة عظيمة جدًا لموضوعات القرآن ولأهدافه وتكون زادًا في أيدي الدعاة؛ لتبليغ رسالات الله □
والسلام عليكم ورحمة الله □

([1]) راجع:

- أ- البرهان في علوم القرآن للزركشي "مرجع سابق": ج1 ص16 وما بعدها □
ب- الإتيان في علوم القرآن للسيوطي "مرجع سابق": ج4 ص24 وما بعدها "النوع الخامس والستون: في العلوم المستنبطة من القرآن" وقد توسع في ذلك طويلًا....
ج- مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني "المقدمة ص53" بتحقيق صفوان داودي □

([2]) راجع: (المنهاج القرآني في التشريع للدكتور عبد الستار فتح الله: ص319. الطبعة الأولى - دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة)

([3]) راجع: (المدخل إلى التفسير الموضوعي: ص88).

([4]) راجع: (المدخل إلى التفسير الموضوعي: ص90)

([5]) معنى عضين: أجزاء وتفاريق □

([6]) راجع: (المدخل إلى التفسير الموضوعي: ص92)